صور من العصر العباسي

عشق القيـــان

للأســـتاذ صلاح الدين المنجد

كان للقيان فى العصر العباسى الشأن العظيم والمنزلة العليا . ولم تشغل الحرائر ما شغلته القيان فى الأدب والتاريخ والاجتماع ، ولم يكن لهن ما كان لأولاء من أثر فى تهذيب النفوس وصقل الطباع وانتشار المجانات ؛ إلا من أوتيت منهن الإمارة والجاه والسلطان ، شبيهات عُليّة وزبيدة والعبّاسة والخيزران

وقد خلا الأدب من صور المخدّرات ، ولكنه رفّ بكثير من صور هؤلاء الجاريات ؛ ففيه عنهن أشاوى حسان ، وأحاديث ظراف ، وأوصاف بارعات

ولم تبلغ القيان هذه الرفعة وتلك المنزلة إلا بعد الجد والجهد ، والتعليم والتلقين ، والصقل والتهذيب ؛ فكن يتخرجن على المغنين الكبار أشباه الموصلى وابن المهدى ، ويحذقن العزف والضرب ، ويتفقهن فى العربية ، يحفظن نوادر الأحاديث وفرائد اللغة ، وأمالى المجالس وشوارد الأشعار ؛ ثم يبرعن فى إظهار الأناقة والدل ، حتى تصبح القينة مصدر غواية وفتون ، ومثار دعابة وفجور ، وبهجة الأرواح ومنية النفوس ؛ فلا عُرو إن أقبل عليهن الشّيخان والشُّبان ، ولا عجب إن هن أتقنّ فن العشق وأصابت سهامهن قلوب الأبعاد والأحباب .

وقد ألّفوا عنهن رسائل حسانا ، منها رسالة القيان للجاحظ ، وكتاب القينات لإسحاق بن إبراهيم الموصلى ، وكتاب القينات للمدائنى ، وكتاب القينات ليونس بن سليمان المغنى ، وغيرهن كثار[1]

(١) أنظر هذه التواليف في مقال لنا نشر فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (الجزء الخامس المجلد السادس عشر سنة ١٩٤١)

وما زالت تتعاون فيما بينها على كشف حقيقة عدد غير قليل من الظواهر الاجتماعية والدينية والاقتصادية . وكثيراً ما استفاد إميل دركيم من البحوث الأثنولوجية التى قام بها « سبنسر وجلن » Spencer & Gillen على قبائل استراليا ؛ وذلك حينما حاول دركيم عام ١٩١٢ تفسير الظواهر الدينية لدى الأمم المحدودة المدنية . وترى كذلك « ليفى برهل » Levy-Bruhl يرجع دائماً إلى نتائج البحوث الأثنولوجية حينما يريد أن يحدد ويحلل عناصر التفكير ووسائل التعبير عنه لدى الأمم المحدودة المدنية . وتجد أيضاً فريزر G. Frazer « ومرجان » Morgan « ووستر مارك » Westermark « ومارسل موس » M. Mauss وغيرهم من الاجتماعيين لم يتمكنوا من التقدم خطوة واحدة فى بحوثهم وتحقيق نتائجها دون الرجوع إلى بحوث الأثنجرافيين

وإذا أنعمنا النظر يظهر لنا الفرق الحقيق بين العلوم الاجتماعية من حيث قائدتها لعلم الاجتماع ؛ فالأثنولوجيا هو الطريق المباشر الذى يسلكه الاجتماعى للبحث عن أصل كثير من الظواهر الاجتماعية والدينية والاقتصادية بل والمبادئ العلمية نفسها ؛ لأننا لم نزل نشاهد فى كثير من بقاع الأرض أمماً وقبائل تتبع فى طريقة عيشها وسائل بسيطة ، وتتبع فى التعبير عن تفكيرها وشعورها صوراً متناهية فى البساطة إلى درجة يمكن اعتبارها إحدى صور الحياة والتفكير للأمم التى سكنت أوربا وغيرها فى عصور ما قبل التاريخ . فهى صور خالية من التعقيد والتنوع اللذين تمتاز بهما حياة الأمم الراقية . وإن البحث عن أصل تلك الظواهر وكيفية نشأتها وطريقة تكوينها ثم العناية بترتيبها وتبويبها بطريقة علمية منظمة هو غاية الأثنولوجى ؛ وبعمله هذا يكون ثروة علمية لا تقدر لدى العالم الاجتماعى

وسنبحث فى الكلمة القادمة عن أهمية البحوث الأثنولوجية بحوض النيل والعمل على تنظيم تلك البحوث وإدخالها ضمن التعليم العالى بمصر

محمد جميل عبد المجيد

على أنه لم يصل إلينا من هذه الرسائل كلها غير رسالة الجاحظ التي ذكر فيها الكثير من أحوال القيان وطبائعهن وميولهن وأخلاقهن وطرقهن في الإغواء. وقد خصهن أبو الطيب الوشاء في كتابه « الموشى »[1] بفصل ممتع عن عشقهن وغرامهن، زاد فيه على ما ذكره الجاحظ وأفاد

وقد لا تجد في أدبنا العربي صفحة أكثر متوعاً وأبرع وصفاً وأشد دقة من وصف الجاحظ والوشاء لعشق القيان، والحيل التي يتبعنها لاستمالة الشبان، والسبل التي يسلكنها لطردهم إذا نفدت دنانيرهم وأفلسوا. فلقد بلغا في وصفهما الذروة التي لا تسامى، والغاية التي لا تدانى

لا جرم أن الجاحظ كان أسبق إلى وصف ذلك، ولكنه أجمل وأوجز؛ أما الوشاء فلم يتعد ما قاله الجاحظ إلا قليلاً ولكنه شرح وفصّل

والمهم في وصف عشق القيان أن الكاتبين أبانا فيه عن عواطف كامنات، وحيل مكنونات، وطرق مغريات، حتى تشعر وأنت تقرأ أنك اليوم بين يدي غانية من غواني الحانات اللواتي تخرجن في الفتنة والإغواء

فقد قرروا أن القينة لا تكاد تخلص في عشقها، أو تناصح في ودها، لأنها مجبولة على نصب الحبالات والشراك للمتربطين ليقعوا في أنشوطتها. ذلك لأن حبهن كلهن كذوب، وعشقهن متبدل غير ثابت. فهو لطمع وغرض، ولذا كن يقصدن أهل النشب واليسار، ويصدفن عن ذوي الإقتار

وكان من عادة القينة إذا رأت في مجلس فتى له غنى وكثرة مال وحسن حال، أن تميل إليه لتخدعه؛ فتمنحه بادئ بدء نظرها، وغمزته بطرفها، وأشارت إليه بكفها، وداعبته بالتبسم، وغازلته بأشعار الغناء، فتنت على كاسانه، ومالت إلى مرضاته، ثم تظهر الشوق إلى طول مكثه، والميل إلى سرعة عوده؛ حتى توقع المسكين في حبالها، وتعلّق قلبه بحبها، وتطمعه في قربها ثم تحزن لزواجه، وتبكي لفراقه، وتكاتبه تشكو إليه هواها، وتقسم له أنه ضميرها في ليلها ونهارها، وأنها لا تريد سواه، ولا تؤثر أحداً على هواه، ولا تنوى انحرافاً عنه؛ ثم تعزّز ذلك بالرسل، وتخبره عن سهرها، وتنبئه عن فكرها، وتشكو إليه القلق، وتخبره بالأرق، وتبعث إليه بخاتمها وفضلةٍ من شعرها، وقلامة من ظفرها، وقطعة من مسواكها، ولبانٍ قد جعلته عوضاً من قبلها، وكتابٍ قد نمقته بظفرها، ونقطت عليه قطرات من دمها، وضمنته الشوق والشكوى، وسألته المواتاة على حبها... وربما منحته من ريحانها، وأهدت إليه في النيروز سكراً وفي المهرجان خاتماً؛ وأخبرته أنها لا تحل الدموع إذا غاب، ولا ذكرته إلا تنغّصت، ولا هتفت باسمه إلا ارتاعت... فلا يشك المسكين في إخلاص حبها، فيميل إليها بودّه... حتى إذا رأت أنها حوت عقله، وصارت شغله، واستمالت لبّه، وسلبت قلبه، وعلمت أنه غريق في بحر حبها... أخذت في طلب الهدايا، فتشهت الثياب والأزر والأردية والعمائم والتكك والخفاف... والعمائب المرصعة، وخواتيم الياقوت، ثم تمارضت من غير سقم، وتعالجت من غير حاجة منها إلى الدواء لتجيئها هدايا ذوي الوجد، من القُمُص المعنبرة، والغلائل المسكة، والأردية المرشوشة، وبخانق الكافور، والمسك الأذفر، والعنبر الأشهب، والعود الهندي، والبلساورد الجوزي، والفراريج، والجداء الرضع، والدجاج الفائق، والفراخ المسمنة، والفاكهة والرياحين؛ يتبعها صنوف من الشراب: من المسل والمطبوخ والمشمس، ثم تلحقها الدنانير والدراهم، فلا تزال في هدايا متواترة، وألطاف متتابعة. حتى إذا نفد اليسار وذهب الإكثار، وأتلف المال وجاء الإقلال، وأحست بالإفلاس... أظهرت الملل، وتبرمت بكلامه، وضجرت بسلامه، وتقلصت منه الرجل، وتنبت عليه سقطاته، وأخذت في الجفاء والعتاب والقلى والإبعاد، وصرفت عنها هواه ومالت إلى سواه، فحينئذ يدرك المغرور الندم والأسف

(١) طبع في ليدن بعناية المستشرق رودلف برونو قبل نصف قرن تقريباً.

ولقد كانت القيان ينظرن إلى المـال ، وكن يحتملن القبح والشيب مع اليسار ويكرهنهما مع الفقر . وهذا شأن الحسان كلهن . . . « فليس للفقر مع الحب عمل »

وربما اجتمع عند القينة من مربوطيها ثلاثة أو أربعة ، وعندئذ يتحامون الإجتماع ، ويتغايرون عند الإلتقاء ، فتبكي لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطى واحداً سرها ، والآخر علانيتها ، وتوهم أنها له دون الآخر ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم جميعاً [1] .

* * *

وبعد ، فما رأيت أبرع ، ولا أحسن ، ولا أرق ، ولا أملح ، ولا أنفذ فى العواطف ، ولا أكسب للقلوب من هذا الوصف . حتى لتحسب أنك أمام عالم نفسى لا يدع غمزة ولا إشارة ولا عاطفة ولا حيلة إلا أحصاها . وليت شعرى أكان الجاحظ والوشّاء عاشقين للقيان لقيا فى سبيلهما الجهد والعناء ، فثأرا منهن بهذا الوصف ؟ وكأنى بالجاحظ « وهو الذى عابوه بملك القيان[2] » قد تيمه هواهن ، وأذبل غصنه حبهن ... أو أنه رأى عن قرب ما كن يصنعن .

فقال : « ولو لم يكن لإبليس شرك يقتل به ولا علم يدعو إليه ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان لكفاه » ثم يستدرك فيقول « وليس هذا بذم لهن ، ولكنه من فرط المدح ، وليس يحسن هاروت وماروت ، وعصا موسى وسحرة فرعون ، إلا دون ما يحسن »

على أن الجاحظ إذا قسا عليهن فقد اتخذ لهن أعذاراً . قال : « وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وقتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخابيث ، وبين الخلعاء والمجّان ، وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ؛ يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، إذا ضرب بعضه ببعض يكون عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ؛ وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والقلة ؛ ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها ، منكبّة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش ، وإنشادهم مراودة ، وهى مضطرة إلى ذلك فى صناعتها ، لأنها إن جفّتها تفلّتت ، وإن أهملتها نقصت ، وإن لم تستفد منها وقفت »[1] .

* * *

تلك صفحة من أدبنا العربى ما أحسب أنها نقل عن أدب كبار الوصّافين والنفسيين فى الغرب ، لأنها صورة حيّة تشيع منها القوة والصدق ، ما تزال تراها كل يوم .

(دمشق) صبحى الدبه الخبير

(١) انظر المصدر السابق : رسالة القيان (٧٢ — ٧٣)

(١) أنظر رسالة القيان للجاحظ ص (٧١ — ٧٣) ، والوشى (٢ / ٩١ — ٩٥)

(٢) أنظر مقدمة رسالة القيان .

مجموعات الرسالة

يباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ٧٠ قرشاً ، و ٥٠ قرشاً عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدره خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد .